

عيد بأية حال

يقول المثل الإنجليزي: "الحياة جميلة بلون نظرتك اليها .. قبيحة بقدر نغمتك عليها". وربما تكون الترجمة أكثر قدرة على التعبير عن المعنى الذى يقول أننا بقدر ما نصنع في الحياة ونتعب فيها نستمتع بها وبقدر ما نتشأم منها ونضجربها، تعبس في وجوهنا كما يقول ايليا أبو ماضى:

أيها المشتكى وما بك داء كن جميلا ترى الوجود جميلا

وكثيرون الذين يشنكون من شتى العلل ولا يضعون يدهم على داء .. لأنها حالة وهم فى كثير من الاحيان .. حيث يتوهم الفرد المرض ويقع فريسة الظن .. ويدور فى حلقة مفرغة من الشكوى والضراعه وتصبح حالة نفسية تؤثر على قدراته المكتسبه والموروثة. وفى الجانب الآخر ننظر الى الآخرين ونتوهم فيهم من يظلمنا، فى حين يحاول الكل مساعدتنا ونغالى فى محبة من يعادينا ظنا بانه يشقى من أجل عيوننا .. والله عليم بذات الصدور.

وعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدى المساويا...

وعيون الرضا هذه هي التي لاتبصر فى وضح النهار .. وعيون السخط هذه هي التي ترى فى سواد الليل لأنها تتحرك بالدوافع الغريزية للانسان فى الحب والكراهية وفى الجانب الآخر نشكو من قسوة الدهر .. وهو طوع بناننا ونحن القادرون على استخلاص العبر .. ورؤية الاحداث وقراءة الواقع وسبر أغوار الماضى .. ولكن نصر على ان زماننا تغير .. ولا نحاول أن نتغير حتى نجارى هذا الزمان ... و (لن يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)، ولكل زمان متطلبات والزمان هو قطار الحياة الذى لا يتوقف فى انتظار المترددين فى الركوب.. والمتطلبات هي الحياة ذاتها التي لا تنتهى عند مغنم.

كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا...

وكلما قضينا حاجة تطلعنا الى أخرى .. من الصغير الذى يرضع فى ثدى أمه .. ويكى من أجل المزيد والى المسن الذى وصل عمره الأفتراضى .. وبدأ فى كتابة اجندة جديدة لمستقبل مأمول.. ولا يتواضع على ما قضى من عمر .. وحقق من آمال .. ولكنه يطمع فى المزيد ويلوم الزمان الذى أصبح غير زمانه .. وكأنما يستطيع الزمان الواحد أن يتوقف ويستوعب كل الأجيال .. وكل الاحداث فتتوالى الأزمنه وتتغير الأمكنه .. وتتعاقب الاعياد فى حضان زمان واحد.

وما لزماننا عيب سوانا

نعيب زماننا والعيب فينا

ولو نطق الزمان لنا هجان

ونهبو ذا الزمان بكل قبج

ونحن نستقبل هذا العيد بالتحديد .. وقد عاد يحمل بشرى كثيرة .. سارة بقدر ما ننظر اليها .. محزنة بقدر ما نجتز أحزان الماضى فيها .. ولا بد أن نتطلع الى رؤية الشمس الخارجة من ظلمة الغيوم التى ظلمت السودان عقوداً طويلة .. لقد كانت الحرب الأهلية تتخر فى عظامنا .. وقد كان الفقر ينهش فى امعائنا .. وكان المرض يفتك بأروحانا زرافات ووحداً .. وهذه ابتلاءات تطل فى حياة كل امة

ولن تشطب فاتورة الفقر والجوع و المرض من مديونية حياتنا المثقلة بالإستحقاقات إلا إذا أوفينا السلام حقه فى كل بقاع السودان .. والذين يديرون هذه الحروب الصغيرة هم نفس الذين ظلوا يشاركون بالأصالة أو الوكالة فى الحكم منذ فجر الإستقلال .. ويمثلون صفوة القادمين من أركان السودان الأربعة فى "العاصمة المثلثة" الخرطوم و الخرطوم بحرى و أم درمان .. و"الكرة المثلثة" المريخ، الهلال والمورده .. ولا توجد كرة فى السودان الا وقد خرجت من عباءة هذا الثالوث الكروى .. و"الاحزاب المثلثة" .. الوطنى الاتحادى .. والشعب الديمقراطى .. وحزب الأمة .. ولا يوجد حزب من أشبال الحركة السياسية الا وقد خرج من عباءة هذا الثالوث الحزبى .. ومفاتيح "الابواب المثلثة" .. كبرى أم درمان و الخرطوم بحرى و الإذاعة .. لا يوجد قائد قرر الاستيلاء على الحكم و قفز على ظهر دبابة فى الصباح الباكر قبل أذان الصبح .. إلا وقد استلم مفاتيح البوابات الثلاث و أذاع بياناً .. وأعلن النظام الجديد واستلام السلطة.

والآن وقد جاء هذا العيد .. وقد أنهى سيناريو "العباءات الثلاث" .. فالحروب الصغيرة يتم تطويقها فى الجنوب و الشرق والغرب والشمال .. و الثالوث الكروى وزع أشباله والقابه على كل أقاليم السودان .. و الأحزاب الثلاثة .. قد أفرغت ما فى بطونها .. أحزاباً صغيرة .. وجزراً متفرقة فى المحيط السياسى المتلاطم الأمواج فلم يعد هنالك أحد لا يجد مظلة سياسية يحتمى بها من هجير الحياة .. ويصل بها الى السلطة .. وقد تم اقتسام الثروة والسلطة .. وأصبحت المديرىات التسع .. حكومات فدراليه متعددة .. وأصبح الدخول من بوابة الإذاعة أو استلام الكبارى لا يقود الى السلطة فقد تعددت الكبارى وتعددت الجسور الجوية و أصبحت الدبابات تأتى من الخارج .. وانتشرت ثورة التقنية .. والفضائيات الخاصة .. والإذاعات الصغيرة .. ولم تعد اذاعة ام درمان هى المصدر الوحيد لمعرفة الأنباء .. وهوية قائد الإنقلاب الجديد .. وبذلك تخلصت البلاد تماماً .. من مرض الإنقلابات وهذه كانت أكبر فاتورة يتم تسديدها على حساب حرية و رفاهية الشعب المغلوب على أمره.

وقد جاء العيد .. والشعب ينعم بحرية لا يعكر صفوها إلا بعض الذين لا يحترمون حرية الجميع .. فلا يمكن أن يصبح كل الناس حكاماً .. أو يبقى كل الناس مجرد رعايا .. غير شركاء فى صنع القرار .. وجاء العيد ليشهد التعبئة العامة للمشاركة فى السلطة .. ولو قيل: "دعوة حق يراد بها باطل" .. فلم يكن مجرد التفكير فيها أو الحديث عنها أو الجهر بها ممكناً قبل بضعة شهور ولم يعد ممكناً السباحة عكس التيار .. تيار الحرية والديمقراطية والتعددية الحزبية فى كل أنحاء العالم شئنا أم أبينا .. ولا خيار لمن لا يختار.

ان هذه النظرة المتفائلة .. ليست دعوة للإستكانة والرضا بالامر الواقع دون محاولة التحديث الجادة لكل مؤسسات الدولة .. وليست موالاة و لا مطية رغبة و لا وليدة رهبة للوضع القائم إذا لم يحشد قواه .. ويظهر كل نواياه من الإلتفاف على المواقف .. والإنحناءة للعواصف حتى يعود الى المكر السئ بأهله.

ان سوء الظن قد دفعنا الى التهلكة اكثر من عقود .. ولا نريد أن نمشى فى هذا الطريق الا بقدر الخطوات التى كتبت علينا فى الماضى .. ووصلنا نهاية الطريق.

ومن كتبت عليه خطى مشاها

مشيناها خطى كتبت علينا

ولا عذر لمن يسعى الى إثارة النعرات العنصرية .. وينكأ جراح الصراعات الطائفية متكررا في عباءة (الشفافية) و دعاوى التهميش .. فالسودان كله ظل مهماشا منذ الإستقلال رغم مساحته الجغرافية و أهميته السياسية و موارده الطبيعية في أكبر قارة تحتاج الى كل هذه الإمكانيات و تسعى إلينا الآن للسلام و الإستقرار قاتلة: " من كان منكم بغير خطيئة فليرمها بحجر " . وكل ابن آدم خطأ وخير الخطائين التوابون.

و لنا عودة باذن الله...

دكتور الزين عباس عمارة - أبوظبى